يوسف سنغاري

كتاب ختم النبوة[1]

مراجعة: سامي بن المكي (كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس)

المصدر: مجلة كراسات تونسية، المجلد LXVIII، العددان 219/218 السداسيتان الاولى والثانية 2014 (2018)، ص 85-92

الناشر: كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية بتونس

{مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّين[2]}

يندرج كتاب *Le scellement de la prophétie en Islam (ختم النبوة)* ليوسف سنغاري ضمن دراسات تاريخ الأفكار، و يعد أحدث الإصدارات المخصصة كليا لدراسة وبحث المقولة القرآنية الفريدة (l'Hapax coranique) حول ختم النبوة الواردة في سورة الأحزاب. احتلت هذه المقولة مكانة رئيسية في تاريخ الفكر الإسلامي منذ وفاة النبي محمد و كانت محل خلاف و جدال، انشغل بها مفسرو القرآن و أهل الحديث و الفقهاء و الفلاسفة و المؤرخون المسلمون. لا غرابة في ذلك لما للنبوة المحمدية من مكانة عظمى لدى المسلمين. أخذت المقولة الفريدة مع الزمن أبعادا عميقة و هامة طالت العقيدة و الفكر و التاريخ الثقافي و الاجتماعي و السياسي للأمة الإسلامية و أثرت فيهم أيما تأثير. لقد تواصل هذا الخلاف و الجدال إلى يومنا هذا مع نخبة من المفكرين الإسلاميين في إطار سعيهم لتجديد الفكر الإسلامي و ملائمته مع تحولات العصر، و لدى المستشرقين في إطار دراستهم للأديان و مفهوم النبوة. في هذا الإطار التطوري الطويل يطرح يوسف سنغاري مسألة ختم النبوة من جديد.

---

[1] تقديم عبد المجيد الشرفي، قوتنار 2018، 428 ص.

Youssouf T. Sangaré, *Le scellement de la prophétie en Islam : Khatm al-nubuwwa*, Préface de Abdelmajid Charfi, Geuthner, (2018), 428 pages.

[2]- القرآن 33، 40.

يوسف سنغاري هو دكتور و باحث من أصل مالي، يعيش بفرنسا، متخصص في الدراسات الإسلامية و العربية. عند صدور كتابه "*ختم النبوة*" كان باحثا مساهما ضمن برنامج الدراسات الإسلامية في إطار مختبر التميز للديانات و مجتمعات العالم المتوسطي بجامعة السوربون، و يشغل حاليا منصب أستاذ محاضر في الحضارة والعالم العربي بجامعة كلارمون أوفارن Clermont-Auvergne بفرنسا. يعد صدور كتابه: *le scellement de la prophétie en Islam*(ختم النبوة) - الذي في أصله أطروحة دكتوراه - ثاني إصدارات الرجل في وقت وجيز بعد صدور كتابه الأول في أواخر سنة 2017 بعنوان: Repenser *le Coran et la tradition islamique : introduction à la pensée de Fazlur Rahman.* (إعادة التفكير في القرآن و التراث الإسلامي: مدخل لفكر فضل الرحمان). كان ذلك تتويجا لمرحلة صعبة و طويلة في مسيرة الرجل الذي رغم صغر سنه قدم خلالها جملة من المقالات و المشاركات في الملتقيات العلمية و البرامج التلفزية.

حدد الكاتب منذ المقدمة (ص. 13—17) إشكالية بحثه بدقة انطلاقا من نقائص البحوث السابقة التي ركزت لدى المستشرقين على مصادر الفترة الكلاسيكية و على تفسير معنى ختم النبوة المحمدية و أصولها التاريخية في الكتابات القديمة كاليهودية و المانوية، لكنها أهملت كتابات المسلمين المعاصرين و ما تطرحه من إشكاليات تتجاوز مسألة تفسير معنى ختم النبوة المحمدية و أصولها، إلى إشكاليات مرتبطة بميراث النبوة عبر جيل الصحابة. يرى يوسف سنغاري أن موضوع ختم النبوة يتيح لنا فرصة تتبع تطور الفكر الإسلامي عبر الزمن تاريخيا و مرحليا من خلال تتبع التطور اللغوي و المفاهيمي و الفكري لقراءات كتاب الفترة الكلاسيكية في العصر الوسيط إلى حدود عصر ابن تيمية (ت. 728 هـ / 1328 م)، و كتابات المفكرين المسلمين المعاصرين المجددين من منتصف القرن 19 إلى يومنا هذا (ص 14-15). كما يمكن أن يفسر لنا كيف أصبح فهم ختم النبوة لدى المعاصرين في قلب فلسفة التاريخ و إشكاليات و تحديات الحداثة و العقلانية - و هو موضوع مفصلي في الديناميكية التاريخية للفكر الإسلامي - أكثر منها مسألة عقائدية ترتبط بمدى نهاية دائرة النبوة بعد النبي محمد من عدمها. (ص. 16)

يستهل يوسف سنغاري كتابه بمدخل مطول تمهيدا للبحث (ص. 19 - 75)، و يعد ذلك توجها صائبا يضع القارئ أمام حالة البحث في مسألة ختم النبوة في البحوث العربية و والأجنبية و في تراجم القرآن و حدودها، و ما تطرحه المسألة من تجاذب و اختلاف و تباين في المقاربات. كما ركز هذا

المدخل التمهيدي بشكل موسع و ثري على المعنى اللغوي و الاصطلاحي للكلمات المفاتيح المتعلقة بآية ختم النبوة (نبوة / نبي، رسول/ رسالة، ختم / خاتم) في المعاجم و لدى اللغويين العرب للفترة الوسيطة. في عنصر ثان (ص. 49) دعم الكاتب اللبحث اللغوي في المسألة بالبحث من منظور قرآني في عديد المفاهيم مثل: النبوة، الوحي، التنزيل و الإلهام. هكذا مهد الكاتب لبحثه بإطار خلفي إبستيمولوجي، تاريخي، لغوي و مفاهيمي ليشرع في تناول المسألة عبر ثلاثة محاور رئيسة.

في المبحث الأول «المقولة القرآنية و الطريقة المانوية» (ص. 77- 95) يتناول يوسف سنغاري موضوع أصل ختم النبوة القرآنية. هي مسألة معقدة و محل خلاف بين الباحثين الذين بلوروا فرضيات و قراءات عديدة و مختلفة. يدعم الكاتب رأي كل من روبار كازبار Robert Caspar و هرفي بلوشوت Hervé Bleuchot في ضرورة الأخذ بعين الاعتبار النظرة الشاملة عند مقارنة ديانتين مختلفتين، لذا يرى الكاتب في هذه المقاربات قصورا إن لم تكن في إطار أوسع يشمل مفهوم النبوة لدى الجانبين (ص.77-78). على هذا الأساس بدأ الكاتب بالبحث في مسيرة النبي ماني Mani (216-277 م) ، ثم عقيدة نبوته و ما تحتويه من فكرة ختم النبوة، ليصل في الأخير إلى مقارنتها بالنبوة القرآنية.

تتجه أهم الأطروحات إلى القول بتأثير النبوة المانوية في النبوة القرآنية، جيث يري Tor Andrae أن مصطلح الأحناف ḥanpa الذي هو من أصل سرياني syriaque و يعني الوثنيين، و نعت به أتباع المانوية و الصابئة من طرف المسيحيين السريان، ثم أخذ المصطلح مع الإسلام معنى التوحيد بالفطرة لعرب الجاهلية ممن ابتعدوا عن الوثنية على غرار ورقة بن نوفل (ص. 86-87). في حين يرى Michel Tardieu أن النبي محمد لم يكتفي باقتباس فكرة حنيف فقط بل أيضا مفهوم خاتم النبوة التي تعني في الأصل النبي ماني (ص. 87)، و يقترح فهم ختم النبوة عند ماني بالكتابة، أي ختم ما جاء به الأنبياء قبله عن طريق كتابة الوحي بنفسه و تخليد ذكرى الأنبياء السابقين، فبصفته رسول- كاتب أصبح ماني هو الذي عن طريقه ختمت المعرفة المكتسبة من الأنبياء السابقين و وبلغت منتهاها (ص. 94). يميل يوسف سنغاري إلى دعم طرح Guy Stroumsa الذي يذهب إلى أبعد من ذلك و يفهم معنى الختم في نبوة ماني فهما مجازيا، و يقترح ثلاثة معاني مجازية للختم يرمز كل منها لختم جزء من الجسد عن الخطيئة (الفم - اليد - الثدي). كما يفهم ختم النبوة لدى ماني بكونه مصدقا لمن بعده من أتباعه الأخيار المبشرين (les Elus/electi). هكذا يصبح معنى الأنبياء لا يعدو أن يكون سوى أتباع النبي ماني اللاحقين (ص. 92)، و يرى يوسف سنغاري أن هذا الفهم يجعلنا بعيدين جدا عن الفهم القرآني لخاتم النبيين.

المبحث الثاني من الكتاب وعنوانه «ختم النبوة في الفترة الكلاسيكية (1-8 هـ / 7-14 م)» (ص. 97-250)، تميز بقراءة شاملة و معمقة في مفهوم ختم النبوة في كتابات الفترة الكلاسيكية بداية من كتب الحديث التي تعبر عن وجهة نظر أهل السنة أو تلك التي تعبر عن و جهة نظر أهل الشيعة، كما تطرق يوسف سنغاري إلى مسألة مدى الترابط بين السياسي و اللاهوتي في موضوع ختم النبوة على خلفية الحديث، فقد تبنى الخلفاء فكرة محمد خاتم النبيين بمعنى لا نبي بعده و حاربوا كل من قال بغير ذلك (ص. 163). بعد ذلك، يمر الكاتب إلى البحث في كتب التفسير القرآني حسب ترتيبها الزمني و ليس المذهبي بهدف تتبع تطور مفهوم ختم النبوة في هذه الكتب (ص. 179). ينهي يوسف سنغاري هذا المبحث بالبحث في رأي اثنين من أهم الفقهاء و المفكرين الإسلاميين في الفترة الكلاسيكية و أكثرهم تأثيرا في الفكر الإسلامي، هما : أبو حامد الغزالي (ت. 505 هـ /1111 م) و تقي الدين أحمد بن تيمية (ت. 728 هـ/ 1328 م) : الأول من خلال كتابه "*الإقتصاد في الإعتقاد*" الذي تميز باعتماد التأويل العقلي لآية ختم النبوة في إطار عقائدي و فقهي يربط المسألة و حكمها بإجماع المسلمين (ص. 210). أما ابن تيمية، فكان موقفه من خلال كتابه "*الفرقان*" مبنيا أساسا على نقد لاذع لفكرة خاتم الولاية لدى الحكيم الترمذي (ص. 225) و ابن عربي (ص. 228)، و يبني رأيه في المسألة على القرآن و الحديث، و يقدم مفهوما آخر لمعنى الولي يقوم على التقوى و القرب من الله و ضرورة الاعتقاد في عالمية النبوة المحمدية و كونها خاتمة النبوة بمعنى لا نبي بعده (ص. 237-238).

المبحث الثالث والأخير من الكتاب بعنوان «مفهوم ختم النبوة في الفكر الإسلامي المعاصر» (ص. 251-368) يعد من أهم إضافات يوسف سنغاري في موضوع ختم النبوة باعتبار إهمال الباحثين الغربيين و المستشرقين لقراءات الباحثين الإسلاميين المعاصرين مقابل تركيزهم على الفترة الكلاسيكية. يقدم الكاتب قراءة فردية في فكر تسعة من المفكرين الإسلاميين المعاصرين (منذ نهاية القرن 19) من مختلف مناطق العالم الإسلامي و البحث في مدى فهمهم للنبوة و ختم النبوة، بداية من السيد أحمد خان إلى عبد الكريم سروش، مرورا بمحمد عبده، محمد إقبال، محمد أحمد خلف الله، فضل الرحمان، حسن حنفي، محمد شحرور، و عبد المجيد الشرفي. دون الدخول في تفاصيل كتابات هؤلاء المفكرين من رجالات الإصلاح الذين انشغلوا بإشكاليات و تحديات العصر، يمكن القول أن الكاتب لم يكتف بتقديم هذه القراءات بل قدم لنا مقارنة داخلية ثرية بينها و ركز على وجود خيط رابط يجمعها يتمثل في اعتمادهم جميعا المنهج التأويلي و ربط مفهوم النبوة بالتاريخ و الميراث النبوي (ص. 362). كما أكد

الكاتب على اندراج هذه القراءات ضمن فلسفة التاريخ، وعلى مسألة مدى تماهي النصوص الدينية الإسلامية مع التحولات الغربية الحديثة و المعاصرة، فبين اشتراكها في الاقتراب من النزعة الإنسانية للنهضة الأوروبية أكثر منها نزعة الأنسنة المسيحية (ص. 352). من جهة أخرى بين الكاتب مدى التمايز بين هذه القراءات، حيث تميز بعض الكتاب من مثل محمد عبده و محمد إقبال بالدعوة للقطيعة مع الجمود الفكري و التقليد و مع مرحلة الوصاية المقدسة من أجل الدخول في مرحلة جديدة من النضج العقلي. بينما تميز فضل الرحمان بطرح مسألة التعارض بين صنفين من الإسلام: الإسلام المعياري المتمثل في مبادئ القرآن و تعاليمه الأخلاقية، و الإسلام التاريخي الذي هو نتاج تاريخي للمؤلفين المسلمين شديد الارتباط بمتطلبات عصرهم و بالسياسة (ص. 358)، و يرى في ختم النبوة مسألة تحدي للسلوك الأخلاقي للإنسان (ص. 362) و هي مسألة هامة لدى أغلب كتابنا المعاصرين.

هذا التطور في الفكر الإسلامي المعاصر لم يكن من فراغ، بل هو نتيجة مسار تاريخي مليء بالتحولات الداخلية والخارجية قام الكاتب بعرض أهم مفاصلها الكبرى ضمن تأطير تاريخي بداية من الفترة الحديثة مع محاولات بعض المصلحين من مثل أحمد سيرهندي بالقارة الهندية (ت. 1625) و محمد بن عبد الوهاب بنجد (ت. 1792)، و هي محاولات لإحياء الإسلام و نهضته من جديد، و لكن لم تبلغ مرحلة التيار الفكري الواعي و المتكامل كما لدى مفكري الإصلاح منذ منتصف القرن 19 (ص. 259- 260)، بداية من رواد حركة الإصلاح من مثل جمال الدين الأفغاني، و محمد عبده الذي كان له - و على عكس الأفغاني (ص 266)- كبير الأثر في قراءات ختم النبوة لدى المفكرين المعاصرين اللاحقين الذين تناولهم الكتاب (ص. 369-372). هذا التطور في الفكر الإسلامي الحديث و المعاصر منذ أواخر القرن 18 كان في ارتباط بحالة الجمود و الانحطاط التي كان يعاني منهما العالم الإسلامي، يضاف إليها تحديات النهضة الأوروبية التي أفرزت في العالم الإسلامي تيارين كبيرين متعارضين في نظرتهما للمصادر الدينية الإسلامية : أولهما تيار محافظ مدافع عن القراءة التراثية لختم النبوة كما نجده في كتابات أبو يعلى المودودي (ص.367)، و في المقابل تيار تحديثي يمثله نخبة من المفكرين الإسلاميين على غرار الكتاب التسعة الذين قدم الكاتب قراءاتهم لختم النبوة. هذا إضافة إلى هشام جعيط الذي تناول موضوع ختم النبوة من زاوية نقد نظرة المستشرقين في الموضوع (ص. 366)، و سيد حسين نصر الذي و إن يتقاسم مع كتابنا التسعة أهم افكارهم فإنه يتميز عنهم باستعادته القراءة الصوفية لختم النبوة، و يتبنى فكرة نهاية التشريع و تواصل الرابط مع الخالق عن طريق الولاية و الإلهام (ص.364).

يمكن أن نحوصل قراءتنا في كتاب *ختم النبوة*، فنقول أن يوسف سنغاري نجح إلى حد كبير في تتبع تطور الفكر الإسلامي من خلال قراءاته في مختلف الأدبيات حول مقولة ختم النبوة القرآنية، ليتحول فهمها من مرحلة تأسيس لعقيدة خلال الفترة الكلاسيكية، إلى سعي لهدم هذه القراءات خلال الفترة المعاصرة بهدف تحرير العقل و الفكر الإسلامي من جموده و من هيمنة رجال الدين عليه و الدفع به نحو الوضوح و الإبداع، لذلك يرى كتاب هذه المرحلة المعاصرة في ختم النبوة تحدي للإنسانية، باعتبار أن نهاية دائرة النبوة هي بداية دائرة الإنسان المتسلح بالعقل و المتحمل لمسؤولياته، و هي أيضا تحدي معنوي و قيمي يرى في نهاية النبوة تحدي للإنسان في سعيه لتحمل قدره، و تجعل من ختم النبوة مصدر دفع للوعي الفاعل (ص 368). إن ثراء المادة البيبليوغرافية (36 صفحة) و الملاحق الخاصة بالأعلام (ص. 415– 424) و المصطلحات التقنية العربية و ترجمتها للفرنسية (ص. 425–428)، إلى جانب عديد الرسوم و الجداول التمثيلية و التوضيحية التي تضمنها الكتاب، تجعل من كتاب "ختم النبوة" مرجعا و مدخلا و أداة بيداغوجية هامة في دراسة تطور الفكر الإسلامي لا غناء عنها لجموع الباحثين و الطلبة المتخصصين في الدراسات الإسلامية، و كذلك لغير المختصين في هذا الميدان.

رغم القيمة العلمية الثابتة للكتاب، فإنه كأي بحث علمي، الكمال فيه غاية لا تدرك، فهو لا يخل من حدود في مستوى الشكل و المنهج و المضمون. يمكن حوصلة ذلك في النقاط التالية : أولا، على مستوى عنونة العناصر و ترتيبها داخل الكتاب، نرى أنها تحتاج إلى مراجعة، و يمكن الوقوف على ذلك من خلال تصفح فهرس المواضيع الذي لا يقدم صورة مبسطة لمحتوى الكتاب، لذا نعتقد أنه يحتاج الى إعادة النظر لتكون المحاور الكبرى و العناصر الفرعية أكثر وضوحا في ذهن القارئ و تكون العناصر متقاربة الحجم. و نقدم هنا كمثال عنصر «محمد عبده و النبوة» (ص. 267) و يليه عنصر «ضرورة النبوة» (ص. 269) و هما في الأصل عنصرا واحدا. ثانيا، رغم التزام الكاتب بما حدده في إشكالية بحثه و وعيه بوجود عديد الإشكاليات الأخرى التي طرح بعضها في الخاتمة كمحاور تستوجب مواصلة البحث (ص. 374)، فإنه على مستوى المقاربة و منهج البحث اعتمد منهج المسح investigation لأهم الأطروحات المختلفة حول مسألة ختم النبوة و المقارنة بينها (ص. 369) و دعم بعضها على حساب أخرى، و لكنه لم يذهب بعيدا في مناقشتها و ينعكس ذلك جليا في « الخاتمة » (ص. 369–375) التي كانت خلاصة منهجية لكل عنصر من عناصر البحث و لم تكن خلاصة عامة تعكس عصارة بحث الكاتب في الموضوع. ثالثا، على مستوى قائمة المصادر و المراجع التي رغم ثرائها و تنوعها فإنها تثير

بعض الملاحظات: أولا، ما يثير الانتباه هو الخلط أحيانا بين المراجع و المصادر، حيث نجد كمثال: نصير الدين الألباني و عمر سليمان الأشقر (ص. 377) و هشام جعيط (ص. 378) ضمن قائمة المصادر الكلاسيكية للفترة الوسيطة، في حين أنهم جميعا من الكتاب المعاصرين. بل أكثر من ذلك نجد مؤلفات هشام جعيط مصنفة ضمن مصادر الفترة الكلاسكية و الفترة المعاصرة (ص. 386). ثانيا، صنف الكاتب المفكرين المعاصرين الذين اعتمدهم كمادة لدراسته، كمصادر معاصرة. هذا الفهم و التصنيف للمصادر و المراجع يبدو غير وجيه على الأقل من وجهة نظر الفهم التاريخي. ثالثا، احتلت أدبيات المتكلمين و الفلاسفة و المفكرين الإسلاميين المكانة الأبرز في البحث على حساب الأدبيات الأخرى ذات البعد التاريخي، و إن يعد هذا مفهوما بحكم طبيعة ميدان البحث و المقاربة المعتمدة، فإنه يدفعنا إلى التساؤل عن مدى فاعلية هذه الأدبيات في واقعها و عن مدى مصداقيتها في البحث عن حلول لإشكاليات الإسلام و الحداثة من داخل الدائرة الدينية، خاصة وأنها شديدة الارتباط بخلفيات عقائدية و إيديولوجية تتراوح بين اليمين و اليسار، بعضها معلنا و بعضها خفيا. لقد أشار الكاتب إلى شيء من هذا مكتفيا بالتساؤل قائلا : " إذا كان الإصلاح البروتستنتي أدى إلى تجاوز العقل القروسطي، فماذا نقول عن حركة الإصلاح؟ هل مكنت – بغض النظر عن أهدافها و خطابها التحريضي – جموع المؤمنين من إعادة صياغة علاقتهم بصورة النبي و تعاليمه، و بالتاريخ و التراث؟ لا نطمح هنا إلى الإجابة على هذه التساؤلات " (ص. 265).

رغم أنه لم يقدم طرحا جديدا في مفهوم الختم، فإن القراءة في كتاب *ختم النبوة* ليوسف سنغاري ، إلى جانب ما تتيحه للقارئ من مادة معرفية غزيرة تلامس التاريخ والفلسفة و السياسة و الدين، فإنها تدفع به أيضا نحو آفاق أرحب للفكر، و نظرة أوسع للدين و الإنسان بعيدا عن النظرة التقليدية الموروثة عن الفترة الكلاسيكية التي تعبر في الواقع على مشاغل و عصر مؤلفيها.